أعلام

الملامح، بل إنها تتجاوز هذا القول بصورة واضحة، فتظهر فيها الحارة العتيقة والمقادير المتوارثة، وصراع الفقر والثراء، والتكية التي استخلصت نفسها فوق صراعات الحارة، ولكنها تصنع اللمسة السحرية التي تشحذ الإرادة الخيرة، وتفجر الطاقات الفردية والاجتماعية في سبيل الإصلاح، كما تظهر فيها النماذج البشرية الشاذة من جنون القوة إلى تجارة القتل وتجارة الجنس ونهم الثروة، ويظهر فيها »الحلم« الكبير الذي تتتابع الأجيال على أمل تحقيقه، وفيها تحتل الانتهازية وركوب الموجة الصاعدة، والقفز من طبقة الحرافيش إلى طبقة التجار مكاناً مرموقاً، بل تكاد الرواية أن تكون مراوحة مستمرة عبر نماذج إنسانية غاية في التنوع تركيباً وفكراً وأسلوباً وهدفاً، حول تجارب الإنسانية في محاولة الانتصار على نوازع الشر والفردية، والتعلق بهدف قديم ضارب في القدم، يحلم به الضائعون والمطحونون، كما يحلم به المتأولون الباحثون عن قاعدة تاريخية لما يرتكبون في حق جماهير الحارة من قهر وظلم.

وإذا كان التقسيم الأسلوبي لروايات نجيب محفوظ يرى أنها تدرجت من الرومانسية التاريخية، إلى الواقعية الاجتماعية، ثم إلى الواقعية الممزوجة بالرمز، ثم إلى العبثية التي زاحمت الواقع والرمز معاً، ثم إلى الصوفية، وهي الأساس الأعمق للرمزية. إذا كان هذا الخط بمثابة التصور الشامل لتطور أسلوب أديبنا الكبير، فإن هذه الرواية قد جمعت كل ذلك في كثير من التناسق والملاءمة بين طبيعة الشخصية والمرحلة التاريخية التي تحتلها في الحارة، أو في تكوين أسرة الناجي، وبين الأسلوب الذي تؤثره في التعبير عن تجربتها الخاصة.

ومن ناحية الشكل الفني وتنوعه عند نجيب محفوظ، فإنه بدأ برعاية عنصر »الحكاية« في تطورها الزمني العام، ثم جعل الحكاية الواحدة »ثلاثية« في امتدادها مضيفاً إليها تجدد أشخاصها ومواكبة أحداثها لمدى زمني ليس بالقصير، ثم هجر الحكاية النامية في تتابعها المنطقي في إطار الزمن، إلى »الفكرة« أو »القضية« في وثباتها الذهنية وومضاتها النفسية وسيولتها اللاشعورية ابتداء من »اللص والكلاب« وقد نمى هذا الشكل عبر »الشحاذ« و»ثرثرة فوق النيل«، ثم قدم الرواية »البانورامية« في ميرامار، حيث عملت آلات التصوير كل من زاويتها لتستكمل الرؤية في النهاية.

وعلى المستوى الفكري والعقيدة السياسية فقد قال نقاد نجيب محفوظ كل ما يمكن أن يقال.. بين طرفي التباعد والاعتدال، كصفات لأدبه، ولدلالات هذا الأدب، ثم كصفات لشخصه، اعتماداً على تصريحاته وإجاباته. وإذا كانت الجسارة الإبداعية هي التي دفعت نجيب محفوظ إلى اقتحام المناطق الملغومة من فضاءات الخطاب المنهي عن النطق به، فإن هذه الجسارة اقترنت بدرجة لافتة من موضوعية الروائي الذي يحاول أن ينصت إلى كل صوت مخالف، مانحاً إياه حق الحضور والوجود. ولذلك استطاعت كتابة نجيب محفوظ تعرية فظائع السجون في »الكرنك« ١٩٧٤، كما استطاعت التمعن في دلالة »يوم قتل الزعيم« ١٩٨٥، ووضع الزعماء لمحاكمتهم أمام »العرش« ١٩٨٣. وكان ذلك في مسيرة كتابة طويلة كشفت بداياتها عن النقيضين المتقابلين يميناً ويساراً.

كذلك فإن ظهور الجماعات المتطرفة صارت موضوعاً لروايات »التنظيم السري« ١٩٨٤، و»صباح الورد« ١٩٨٧ إلى »قشتمر« ١٩٨٨، التي كانت آخر مرايا نجيب محفوظ في اجتلاء ملامح التطرف الديني للأبناء والأحفاد.

ولم يكن من قبيل المصادفة، أن يقوم شاب في عمر الشباب الموصوف في الروايات السابقة بمحاولة اغتيال نجيب محفوظ في الرابع عشر من أكتوبر / تشرين الأول عام ١٩٩٤، وهذا إن دلَّ على شيء فإنه يدل على الخوف من عظمة كاتب لا يتردد في تسليط الضوء على كل بقع الظلام.

هذه الرحلة الطويلة التي قضاها بين أوراقه الصفراء أنتجت أكثر من خمسين عملاً روائياً، وتوجت بالكثير من الجوائز العربية والعالمية، فهو العربي الحاصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٨، على الرغم من مواقفه العروبية القومية، الرافضة لكل أشكال الاحتلال، وحين أتمَّ نجيب محفوظ عامه التسعين، وكان وقتها في الولايات المتحدة رفض أن يحتفل بعيد ميلاده نتيجة سياسة الولايات المتحدة القائمة على القتل والدمار، وديمقراطيتها المبنية فوق دماء الأطفال والنساء والشيوخ في أفغانستان وفلسطين.

رحل نجيب محفوظ كما رحل من قبله هذا العام محمد الماغوط، وعبد السلام العجيلي،و نقولا زيادة وسلمى الحفار الكزبري. ويبدو أن هذا العام هو عام رحيل العمالقة، الذين رحلوا بأجسادهم لكن مآثرهم ستظل باقية وخالدة.

انشودة المطر
بدر شاكر السيّاب

عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعةَ السحَرْ،
أو شُرفتان راح ينأى عنهما القمرْ.
عيناك حين تبسمان تورق الكرومْ
وترقص الأضواء... كالأقمار في نهَرْ
يرجّه المجذاف وهْناً ساعة السَّحَرْ
كأنما تنبض في غوريهما، النّجومْ.
وتغرقان في ضبابٍ من أسىً شفيفْ
كالبحر سرَّح اليدين فوقه المساء،
دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف،
والموت، والميلاد، والظلام، والضياء؛
فتستفيق ملء روحي، رعشة البكاء
ونشوةٌ وحشيَّةٌ تعانق السماء
كنشوة الطفل إذا خاف من القمرُ!
كأن أقواس السحاب تشرب الغيومْ
وقطرةً فقطرةً تذوب في المطرْ.
وكركر الأطفالُ في عرائش الكرومْ،
ودغدغت صمت العصافير على الشجرْ
أنشودةُ المطرْ.
مطر...
مطر...
مطر...
تثاءب المساء، والغيومُ ما تزالْ
تسحُّ ما تسحّ من دموعها الثقالْ
كأنّ طفلاً بات يهذي قبل أن ينامْ
بأنَّ أمّه ـ التي أفاق منذ عامْ
فلم يجدها، ثمَّ حين لجّ في السؤالْ
قالوا له: »بعد غدٍ تعودْ..«
لا بدَّ أن تعودْ
وإنْ تهامس الرفاق أنهَّا هناكْ
في جانب التلّ تنام نومة اللّحودْ
تسفّ من ترابها وتشرب المطر؛
كأن صياداً حزيناً يجمع الشِّباك
ويلعن المياه والقَدَرْ
وينثر الغناء حيث يأفل القمرْ
مطر...
مطر...
أتعلمين أيَّ حُزْنٍ يبعث المطرْ؟
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمرْ؟
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضّياع؟
بلا انتهاء ـ كالدَّم المراق، كالجياع،
كالحبّ، كالأطفال، كالموتى ـ هو المطرْ!
ومقلتاك بي تطيفان مع المطرْ
وعبر أمواج الخليج تمسح البروقْ
سواحل العراق بالنجوم والمحار،
كأنها تهمّ بالشروق
فيسحب الليل عليها من دمٍ دثارْ
أصيح بالخليج: »يا خليجْ
يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والرّدى!«
فيرجعُ الصّدى
كأنّه النشيجْ:
»يا خليج
يا واهبَ المحار والردى..«
أكادُ أسمعُ العراق يذْخرُ الرعودْ
ويخزن البروق في السّهول والجبالْ،
حتى إذا ما فضَّ عنها ختمها الرّجالْ
لم تترك الرياح من ثمودْ
في الوادِ من أثرْ.
أكاد أسمع النخيل يشربُ المطرْ
وأسمع القرى تئنّ، والمهاجرين
يصارعون بالمجاذيف وبالقلوعْ،
عواصف الخليج، والرعود، منشدين:
»مطر...
مطر...
مطر...
وفي العراق جوعْ
وينثر الغلالَ فيه موسم الحصادْ
لتشبع الغربان والجرادْ
وتطحن الشّوان والحجرْ
رحىً تدور في الحقول... حولها بشرْ
مطر...
مطر...
مطر...
وكم ذرفنا ليلة الرحيل، من دموعْ
ثم اعتللنا، خوف أن نلامَ، بالمطر...
مطر...
مطر...
ومنذ أنْ كنَّا صغاراً، كانت السماءْ
تغيمُ في الشتاءْ
ويهطل المطرْ،
وكلَّ عام ـ حين يعشبُ الثرى ـ نجوعْ
ما مرَّ عامٌ والعراق ليس فيه جوعْ.
مطر...
مطر...
في كل قطرة من المطر
حمراءُ أو صفراء من أجنَّة الزَّهَرْ.
وكلّ دمعةٍ من الجياع والعراة
وكلّ قطرة تراق من دم العبيدْ
فهي ابتسامٌ في انتظار مبسم جديدْ
أو حُلمةٌ تورَّدتْ على فم الوليدْ
في عالم الغد الفتيّ، واهب الحياة!
مطر...
مطر...
مطر...
سيُعشبُ العراق بالمطر...«
أصيح بالخليج: »يا خليجْ...
يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والردى!«
فيرجع الصدى
كأنَّه النشيج:
» يا خليجْ
يا واهب المحار والردى..«
وينثر الخليج من هِباته الكثارْ،
على الرمال، رغوه الأُجاجَ، والمحار
وما تبقّى من عظام بائسٍ غريق
من المهاجرين ظلّ يشرب الردى
من لجّة الخليج والقرار،
وفي العراق ألف أفعى تشرب الرَّحيقْ
من زهرة يربُّها الفرات بالنَّدى.
وأسمع الصدى
يرنّ في الخليج
مطر...
مطر...
مطر...
في كلّ قطرة من المطرْ
حمراء أو صفراء من أجنَّةِ الزَّهَرْ.
وكلّ دمعة من الجياع والعراة
وكلّ قطرةٍ تراق من دم العبيدْ
فهي ابتسامٌ في انتظار مبسمٍ جديد
أو حُلمةٌ تورَّدت على فم الوليدْ
في عالم الغد الفتيّ، واهب الحياة.
ويهطل المطرْ...

قصيدتان
عايدة أحمد صعب

حلم

متيّمتي .. عانقيني ..
مرري أصابعك على وجهي .. على عنقي ...
إخنقيني ..
دعي أظافرك تنغرز بي ... أوجعيني ...
دعيني أتالم لأشعر أني لست في حلم .. وأنت
فيه تزوريني ...
شدّي على ذراعي ..
إحبسي دم شراييني ...ضعي مرآة أمامي ..
لأراك فيها .. وأنت فيها تريني
...لأصدق أني لست في حلم ...
وأنت فيه تزوريني ...
إنتظريني لحظة ... سأعود ...سأجلب لك كل
ملاييني
وأضعها تحت قدميك .. وإن شئت أن تدوسي
.. فدوسيني ..
لأ صدق أني لست في حلم ... وأنت فيه..
تزوريني
متيمتي ..
عديني أن لا ترحلي الآن عديني ..
أشعر بقلبي من فرط سعادته يدميني ...
سيخرج من بين ضلوعي
ويقول لك .. شرّحيني ... شرّحيني
خائف أنا.. خائف أنا ... أن أكون في حلم ..
قد جئت فيه تزوريني

لماذا الوداع ؟؟ هل سينتهي كل شئ ولن
ألقاك بعده أو تلاقيني ؟
متيمتي ...لا ترحلي الآن
.. بثوبك الفضفاض .. دثّريني ...

لم وضعت يدك على عينيّ ؟
أريد فتحهما ... ساعديني ..
لا أرى سوى الظلمات ...
وصوت ضحكتك يشقيني ..

إلى أين ترحلين ؟
إلى أين تذهبين ؟
عودي إليّ أنعشيني
هيفاء .. عودي .. برحيلك هذا توقظيني ..
هيفاء رحلت .. أين أنا..؟
هاهي صورتك أمامي تصبّحني .. وتمسيني .
هيفاء كانت في حلم ... قد جاءت فيه
تواسيني..
هيفاء ما زلت صادقة ..
حتى في موتك .. لم تخنني ..

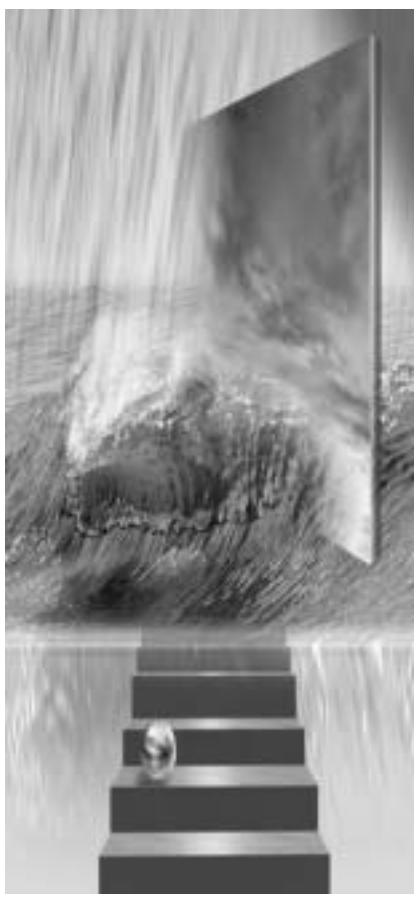

* * *

أأنتظرك بعد؟

أأنتظرك بعد؟ ونيران الأسى تأكلني؟
أأنتظرك بعد ؟ وجدران البيت ترمقني ؟
أأنتظرك بعد ؟ ومرآة الحزن باللوم ترشقني ؟
أأنتظرك وطيور الهجر رحلت... تسبقنيي
أأنتظرك ... ؟ وأنت تنتظر من منك يسرقني